عودة الضال

إلى

عرين الأشبال

حدثنا ابن عربان قال:

«سبقت الشيخ الجليل إلى مجلسنا المعتاد..، وما كدت أراه يخطر من بعيد ويلج الباب، حتى قمت لاستقباله مفسحاً له مكاناً أثيراً على وسادة وثيرة

جلست بين يديه أتطلع إلى شفتيه تفتتح العودة للحديث الذي انقطع في مجلسنا الأنيس ليلة البارحة بعد أن تأخر الليل بنا وخلا المجلس من السمار سوانا...

ولم تفت الشيخ لهفتي لاستكمال الحديث المقطوع عن أبي الهول الصريع وصاحبه أبي العيال المبتلى بنحس الاستثمار في الديار وخارج الديار...
فلم يضع وقتاً ولم يطل صمتاً... فما كاد يستريح حتى بدأ باستكمال حديثه الصريح فشرع يقول:

«سيحزنك يا ابن عربان ما سوف تسمع عما آل إليه الحال بأبي الهول وصاحبه أبي العيال... ولكنها حكمة الله وقضاؤه.. فهو المبتلي وهو المعين وما الأجر والمثوبة إلا للصابرين...

تركتك بالأمس وقد وصل بنا الحديث إلى أبي الهول الذي صدر القرار بوقف نشاطه في الديار واستدعائه للمثول أمام النائب العام بتهمة إصدار شيكات بدون رصيد... تطورت إلى دعوى للإفلاس بالاحتيال...

ولم تفلح المساعي الجادة في درء المصاب.. فرد طلب تأجيل الدعوى ولم يقبل الرجاء بالتخفيف من خلال الصلح الواقي...

وعلمنا بعدها أن الضغوط ـ ضغوط السادة أصحاب النظام العتيد ـ قد مورست دون توان على السلطات صاحبة القرار... حملت تلميحاتها الوفود... وأوماً بها ما صرح به السفراء من وعود أو وعيد... وكانت كلها تطالب بعدم التهاون مع أبي الهول المطلوب أساساً من الإنتربول... والذي تمادى في النصب والاحتيال داخل وخارج الديار...!! على زعم السادة الكبار...

اجتمع إلى أبي الهول الأصدقاء والأحباب، يقلبون الرأي ويهونون

المصاب...، يبايعونه على الاعتصام...، أو الإضراب عن الطعام...، على التنديد بالقضاء في مسيرة من الناس الخلصاء
الناس الذين شرعوا بتذوق لذة التعاون البناء وحلاوة الإعمار في ظله والنماء...، دون وساطة الوسطاء من سماسرة المال..، أو نصح الناصحين في صناديق المرابين...، أو مشورة جهابذة العلماء من أتباع ذوات الجنسيات المتعددة والأذرع المتمدمدة... أو خبراء الأجور الباهظة من تلاميذ أصحاب النظام من السادة العظام...

طاف أبو الهول بجمع الأحباب شاكراً صدق الوفاء راجياً ألا يحمل الناس الطيبون أي عناء...
لقد سعى فأينع السعي...
واجتهد فكاد أن يصيب...
وما وقفة الناس من حوله إلا خطوة على طريق طويل أدرك الناس مبتداه...
ولا بد سيصلون يوماً إلى غايته ومنتهاه ولا بد أن يتحقق القصد والمأمول
وحلف أبو الهول ألا يحرك إنسان ساكناً...، ورجا الناس أن يعودوا لحالهم...

وانصرف مع أبي العيال يلملم ما تبقى له من قليل عتاد...
يودع السكرتيرة الحسناء التي غادرت البلاد وفي عيونها دمع غزير يفيض على الخدود كاللؤلؤ المعقود...

واصطفى أبو الهول في أيامه الأخيرة أبا العيال فأقام لديه ينتظر اليوم الموعود للمثول أمام القضاء في الديار...

يقضي الساعات في كتابة بعض الخواطر في كراس صغير.. أو يداعب الصغار من أطفال أبي العيال..، ويمضي الأمسيات وحيد الخطا على شاطىء البحر يجول...

دعاه أبو العيال إلى مجلسنا في إحدى الأمسيات، وجلسنا نستمع إليه ونحثه

على ألا يسكت على الضيم..، فمعارفه كثر... فيهم من علية القوم...، ممن يدرك صدق مسعاه في خير الناس وعمار الديار...

وكان أبو الهول يشكر لنا لهفتنا عليه وغيرتنا على الصالح العام ويعدنا باتخاذ ما يلزم...
لكننا كنا نستشف من تعابير محياه أنه لن يطرق باباً ولن يحرج صاحباً...
وكأنه كان يقول لنا: لا فائدة الآن.. فما آن بعد الأوان..، فاللعبة أكبر من وساطة صاحب أثير أو شفاعة صغير أو كبير.

واستطرد الشيخ يقول:

«واستمر الحال بأبي الهول على ما ذكرت... يسجل الخواطر في الصباح... يداعب أطفال أبي العيال... يحكي لهم القصص الطوال... يمرح معهم بالكرة أو يضرب الأمثال...
وفي المساء يمشي وحيد الخطا على الشاطىء الطويل...
حتى كان اليوم الذي يسبق اليوم الموعود لمثوله أمام القضاء...
سجل أبو الهول آخر الخواطر في الكراس الصغير..
داعب العيال... واحتضن الطفل الصغير...
ثم حمل دفتر الخواطر وراح يتمشى على الشاطىء تتابعه أعين الأطفال وهو يختفي مع الغروب في الأفق البعيد...

انتظر أبو العيال صاحبه أبا الهول طيلة الليل...
وأشرق الصباح...
سأل العيال عن أبي الهول... راحوا يحثون الخطا على الشاطىء الطويل...
خرج معهم من النامس الكثير...
يبحثون ويدعون عبر الأثير
أبا الهول... أبا الهول...
ضجت الرمال بالدعاء
واصطدم الصوت بالصدى

واختلط الرجاء بالبكاء
وتردد الدعاء في كل الأرجاء
ألا يكون قد أصاب أبا الهول مكروه
أو اعتراه بلاء. . .

واستمر البحث طيلة النهار
تعب الصغار وبكى الكبار
ولم يجد القوم بعد طول بحث وعناء
إلا صفحات ممزقة من دفتر الخواطر تعصر الماء
صفحات ساح فيها المداد واختفت منها الأحرف والسطور. . .

تفرق الناس بين واجم ومقهور. . .
وعاد العيال إلى الدار
وعاد أبو العيال
وطاف الطفل الصغير يسأل بأحرف لم تتضح معالمها:
«أبت وين عم الهول»
احتضن أبو العيال طفله الصغير. . . وأشاح بوجهه يخفي عبرة وهو يقول:
«عمك أبو الهول راح إلى البعيد البعيد. . . راح يحدث المحار في دفء البحار عن لعبة الأقدار»

واستطرد الشيخ يقول:
«وما زلنا يا ابن عربان لا ندري ماذا حل بأبي الهول. . .
إلا أن الناس حرصوا على ألا يذكروه إلا برجاء الرحمة من الله وحسن الثواب. . .
فإذا سأل عنه الأطفال. . . كان يقال إن أبا الهول راح يحدث المحار في دفء البحار عن قصة الاستثمار في الديار وخارج الديار. . . عن لعبة الأقدار. . .»

تابع الشيخ حديثه قائلاً:
«أما صاحبنا أبو العيال فقد اسودت الدنيا في عينيه وأظلمت الحياة بعد رحيل

أبي الهول إلى المجهول...
فما كنت تراه إلا واجماً حزيناً... مثقلاً بالهموم.. قليل الكلام.. ميالاً للانطواء... وباللقاء ضنيناً...

كان أبو العيال ـ كما تعلم يا بن عربان ـ من أوائل الملازمين مجلسنا السباقين إلى لقائنا...
لكنه غدا بعد رحيل أبي الهول عنا... عازفاً عن لقاء الأصحاب في المجلس إلا لماماً وبعد طول احتجاب...
وكنا ـ بدورنا ـ ندرك ثقل ما يعانيه... فما كان منا إلا الدعاء له بالعون والصبر وحسن الثواب

كان أبو العيال لأبي الهول من أقرب الناس... وكان من أكثر المتضررين من تلفيقه الإفلاس...
ضاع مال أبي العيال القليل في برامج الاستثمار الذليل في الأسواق الدولية التي انتهت بالمصادرة والتجميد والتضليل...
وراحت مدخرات العيال وحلي قليلة لأم العيال وما استدان فوقها من أموال...
وضعها تحت تصرف أبي الهول ليقف على قدميه في الديار... راحت كلها مع مكيدة الإفلاس المقصود لنشاط أبي الهول المرصود...

فما بقي لأبي العيال إلا ديون يسددها من مورد محدود وأفواه يطعمها من أبسط الموجود...

واجتمع الناس في المجلس على عون أبي العيال...، وأغدق الكثير من المال...، لكن هيهات... فما كان لأبي العيال أن يقبل مالاً قل أو كثر من صاحب أو خليل...

عانق الأصحاب في المجلس بالدموع...، وشكر الله على فضل الإيمان المستقر في الضلوع...، وجذوة الإحسان التي لم تزل تضيء في نفوس الجميع...

وقام يرجو الناس أن يبحثوا بين الناس عمن هو أحوج للمال منه ربما أصابه في ذلك قليل من الأجر أو ناله بعض من الثواب...

وأردف الشيخ يقول:

«وانقضت بعد ذلك شهور، قام خلالها أبو العيال بالعمل ليل نهار... بغي ما استدان من مال وما استلف من ديون...

أعاد مدخرات الأطفال إلى نصابها المعهود...

وعوض أم العيال حليها بكل جديد وفريد...

ثم تنهد الشيخ وهو يقول:

«وكم ساد مجلسنا الوجوم في تلك الأمسية التي لا ننساها... عندما أطل علينا أبو العيال في ذلك اليوم مودعاً صحبه الكرام بأعذب الأماني وألطف الكلام... تساءل الأصحاب... واشتد السؤال...

لكن أبا العيال ما برح يقول إنها إرادة الله فالرزق عليه... منه وإليه... وإنه مرتحل على أمل اللقاء في مستقبل قريب يبتسم فيه الرجاء فيحلوا معه اللقاء

وعندما ألح الأصدقاء بالسؤال: إلى أين يا أبا العيال...؟؟

لم نسمع منه إلا أنه عائد للأهل هناك في الجبال شمال الديار...!!

* * *